

سلطة المثل وآليات الحجاج في أمثال العرب للمفضل الضبي:
دراسة تداولية

**The Authority of the Proverb and Argumentation
Mechanisms in "Amthal al-Arab" by al-Mufaddal al-
Dabbi: A Pragmatic Study**

د. أنس فاروق تيسير محافظة*
جامعة العلوم الإسلامية العالمية -
الأردن

mahafzahanas@gmail.com

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2026 / 06 / 28	2026 / 05 / 09	2026 / 03 / 12

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى استكشاف سلطة المثل وآليات الحجاج في مدونة المفضل الضبي، عبر مقارنة تداولية تبرز كيفية تحول المثل إلى أداة إقناعية لتوجيه المتلقي، وتكشف الدراسة عن قدرة الأمثال على دمج الحجاج العقلي، البلاغي، والأخلاقي في قالب موجز، مستمدةً قوتها من التراكيب اللغوية الدقيقة كالنفي والشرط، والرمزية التي تتجاوز الواقعة التاريخية إلى القيمة الكونية. خلص البحث إلى أن "أمثال العرب" تمثل نموذجاً متكاملًا للقوة الإنجازية؛

حيث يمتزج فيها المنطق بالبلاغة لتشكيل سلطة معرفية واجتماعية قادرة على توجيه السلوك وتنشيط القيم في الذاكرة الجمعية.

الكلمات المفتاحية: المثل، الحجاج، سلطة القول، المفضل الضبي، التداولية.

.Abstract

This study explores the authority of the proverb and argumentation mechanisms in Al-Mufaddal al-Dabbi's collection through a pragmatic approach, highlighting how proverbs function as persuasive tools for guiding recipients. The research reveals the proverbs' capacity to integrate logical, rhetorical, and ethical argumentation within concise structures, drawing power from precise linguistic forms such as negation, conditions, and symbolism that transcend historical events into universal values. The study concludes that "Amthal al-Arab" represents a comprehensive model of illocutionary force, where logic and rhetoric converge to establish a cognitive and social authority capable of shaping behavior and embedding values within the collective memory.

Key words: Proverb, Argumentation, Discursive Authority, Al-Mufaddal al-Dabbi, Pragmatics

:

المؤلف المرسل: أنس فاروق تيسير محافظة mahafzahanas@gmail.com

تمثل الأمثال العربية مستودعًا للذاكرة الجمعية، وحصونًا لغوية اختزلت فيها الأمة تجاربها وقيمتها في قوالب لفظية مكثفة تتجاوز حدود الزمان والمكان. وإذا كان المثل في ظاهره حكمة موجزة، فإنه في جوهرة ممارسة لسلطة قولية نافذة، تتكئ على إرث اجتماعي وتاريخي يمنحه قوة الإلزام في الخطاب. تبرز أمثال العرب للمفضل الضبي كمدونة مركزية في هذا السياق، ليس لكونها توثيقًا تاريخيًا فحسب، بل بوصفها مختبرًا حيًا تتجلى فيه آليات الحجاج والقدرة البلاغية على توجيه المتلقي وصياغة وعيه الأخلاقي والاجتماعي.

تتبقى أهمية هذه الدراسة من محاولة سبر أغوار الفاعلية الإنجازية في أمثال الضبي؛ فالبحث لا يقف عند حدود الوصف اللساني، بل يسعى لفهم كيفية عمل الحجاج داخل بنية المثل، واستنتاج الأدوات اللغوية والبلاغية من نفي، وشرط، واستفهام، واستعارة، التي تُحوّل المثل من مجرد خبر إلى حجة قاطعة. إننا أمام إشكالية تتمحور حول: كيف يمارس المثل سلطته الحجاجية على المتلقي؟ وكيف تضافر البناء النحوي مع السياق التداولي لإنتاج خطاب إقناعي يوجه السلوك وينمي التفكير النقدي؟ ما هي الأدوات اللسانية والبلاغية التي تركز عليها هذه الأمثال لتشييد سلطتها الإقناعية؟ ما الدور التداولي الذي تلعبه هذه الأمثال في إعادة صياغة السلوك الاجتماعي والأخلاقي؟

تتمحور أهداف هذا البحث حول كشف آليات السلطة الحجاجية في أمثال الضبي، وبيان كيفية اشتغال أدواتها اللسانية والبلاغية في تشكيل خطاب إقناعي نافذ. ويسعى البحث إلى تفكيك العلاقة التداولية بين المورد والمضرب لاستجلاء القوة الإنجازية للمثل، مع تسليط الضوء على دوره كأداة تعليمية وأخلاقية تساهم في صياغة الوعي الاجتماعي وتوجيه السلوك الإنساني عبر قوالب لغوية مكثفة تتضافر فيها الحجة بالبيان. اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي، مع الإفادة من أدوات التحليل التداولي والحجاجي. وقد عكف البحث على تفكيك عينات من أمثال الضبي وتحليل بنيتها (نحوًا وصرفًا وبلاغة) لبيان أثرها في المقام التخاطبي.

1. المرتكزات التداولية لسلطة المثل وآليات الحجاج

المثل في معناه اللغوي يُراد به المحاكاة والقياس والافتداء، إذ يُقال: إن فلانًا ضرب مثلًا أو احتذى مثلاً، أي جعل قولاً أو فعلاً نموذجًا يُستدل به على غيره، ومن هذا المنطلق صار المثل صورة تُجسد فكرة، أو صياغة موجزة تحاكي حدثًا وتبقى في الأذهان¹، أما في الاصطلاح عند البلاغيين واللغويين، فالمثل هو عبارة موجزة، تُقتطع أحيانًا من سياقها الأصلي أو تأتي مستقلة، فتنتشر بين الناس

بفضل سهولة لفظها وعمق معناها، وتوظف للدلالة على مواقف مشابهة لغير ما قيلت فيه أول مرة². ولهذا السبب لا يتوقف تداول المثل عند حدود المناسبة التي وُلد فيها، بل يتجاوزها إلى مواقف أخرى تماثلها في المعنى أو المشابهة.

نظر العرب إلى أمثالهم على أنها ذروة الفصاحة، وخلاصة الحكمة، وأحد أبرز مظاهر الإيجاز الذي يجمع قوة الدلالة مع جمال الأسلوب³، فالمثل عندهم يجسد البلاغة في أنقى صورها، إذ يجمع بين لفظ قليل ومعنى كثير، وبين عبارة قصيرة ودلالة واسعة، وقد كانوا يعدّونه شاهداً على صفاء العقل وذلاقة اللسان، فبالمثل الواحد يستطيع المتحدث أن يختصر حكاية طويلة أو يوجز تجربة كاملة، ولهذا السبب حظيت الأمثال بمكانة رفيعة عند أهل البيان، حتى غدت سجلاً حياً يعكس أفكار العرب وتجاربهم ومواقفهم من الحياة⁴، والمثل في جوهره لا يصرح بالوقائع مباشرة، بل يرسم لها صورة رمزية أو يستعين بحكاية أو موقف ليشير إلى ما وراءه فالعرب لم يبتكروا أمثالهم اعتباطاً، بل ارتبط كل مثل عندهم بحدث أو واقعة محددة، ثم صار بعد ذلك رمزاً يُستدعى في مواقف شبيهة⁵، ومن أبرز خصائص المثل أنه ينطلق من موقف جزئي ليُعمم على أحوال كثيرة⁶، وهو ما يمنحه قدرة إقناعية خاصة، لأن السامع يجد فيه صورة قريبة من تجربته وفهمه، فيقبل المعنى دون عناء، ثم إن المثل البليغ المختصر يسهل على الجميع إدراكه، ويعين المخاطب على الفهم السريع، كما يمكن المتكلم من التأثير في غيره وإيصال رسالته بأيسر الطرق⁷. ولأن المثل يجمع بين الفن والجمال إلى جانب الفائدة والفكرة، فقد ظل حاضراً في الثقافة العربية بوصفه أداة تعليم وإقناع، ووسيلة متعة وتذوق في آن واحد.

ارتبطت الأمثال عند العرب بالبيئة الصحراوية التي عاشوا فيها، فصوّرت حياتهم البدوية وعكست نظرهم إلى الطبيعة والإنسان والمجتمع، فكان فيها حديث عن الكرم والنجدة والشجاعة، كما احتوت على تحذير من الغدر والخذلان والجبن، وما يميز المثل أنه لا يفقد بريقه بمرور الزمن، بل يظل صالحاً للتداول في كل عصر، لأنه يحمل قيمة إنسانية عامة تتجاوز حدود المكان والزمان. ومن هنا صار المثل عند العرب أداة للتربية الاجتماعية، ووسيلة للإقناع الخطابي، وزينة للحديث الأدبي، حتى غدا كثير من أمثالهم يُستشهد به في الشعر والنثر والخطابة والقصص، وإذا تأملنا في انتشار الأمثال نجد

أنها جمعت بين المتعة والفائدة، فهي تُطرب الأذن بجمال صياغتها، وتغذي العقل بما تتطوي عليه من حكمة وتجربة. ولهذا السبب لا تزال الأمثال حيّة في وجدان الناس إلى اليوم، يتوارثها الأبناء عن الآباء كما تُورث القيم والعادات.

الأمثال بطبيعتها نصوص حجاجية بامتياز فهي وُضعت لتكون دليلاً برهانياً سريع التأثير في المخاطب ولتعمل كحجة مقنعة في مقام الجدال أو الحوار، فالمثل لا يكتفي بمجرد تصوير الفكرة، بل ينهض بوظيفة الإقناع من خلال اعتماده على سلطة الجماعة التي تداولته عبر الأجيال، فحين يُستشهد بالمثل في حوار أو مناظرة، لا يُنظر إليه كقول فردي، بل كحكمة مشتركة اختبرتها الجماعة ووافقت عليها. وهذا ما يمنحه قوة إلزامية في مقام الحجاج، إذ يشعر السامع أن رفض المثل يعني معارضة العقل الجمعي والخروج عن المألوف، ومن هنا فإن وظيفة المثل ليست جمالية فحسب، بل هي أيضاً إقناعية، لأنه يلخص تجربة واقعية في صيغة موجزة يسهل استدعاؤها عند الحاجة؛ ولأن المثل يقوم على الإيجاز والكثافة، فإنه يترك أثراً أعمق من الشرح المطول، فيتغلغل في ذهن المتلقي دون مقاومة ويؤسس أرضية مشتركة بين طرفي الخطاب.

أما الحجاج في اللغة يقول ابن منظور "والحجة البرهان وقيل الحجة ما دُفع به الخصم وقال الأزهري: الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة وهو رجل محاج أي جدل، والتحاج التخاصم وجمع الحجة حجج وحجاج وحاجة ومحاجة وحجاجاً نازعه الحجة وحجّه يحجّه حجاً"⁸، أما عند ابن فارس فيعرّف الحجاج على أنه "يقال حاجبت فلاناً فحجبت أي غلبته بالحجة وذلك الظفر عند الخصومة"⁹، يرى العرب أن الحجاج يرتكز أساساً على سياق الخصومة والمواجهة بين طرفين، إذ اعتُبرت الحجة عندهم أداة يعتمد عليها المتكلم ليثبت تفوقه على محاوره ويقنعه برأيه. ولهذا ارتبط مفهوم الحجاج عند القدماء بطابع المنازعة والجدال، لأنه ينبثق غالباً من موقف حوارى قائم على التحدي والسعي إلى الغلبة.

أما الحجاج في الاصطلاح يُفهم على أنه خطاب غايته الإقناع والتأثير في المتلقي، إذ يسعى المتكلم من خلاله إلى دعم رأي قائم عند السامع أو دفعه لتغيير موقفه وتبني موقف جديد. وقد يكون الهدف مجرد الإقناع الذهني والفكري، وقد يتعداه إلى دفع المتلقي للقيام بسلوك عملي معين¹⁰، وبذلك يكون الحجاج أداة موجهة إلى إذعان العقول وتصديق ما يطرحه المتكلم، أو وسيلة لتعزيز قناعة موجودة

أصلاً عند المخاطب، لكن بطريقة تزيدها رسوخاً وتفتح أمامه آفاقاً جديدة. من هنا فإن قوة الحجاج لا تقتصر على مجرد نقل فكرة، بل تمتد إلى تحريك الإرادة ودفع السامع نحو المبادرة بالفعل أو التراجع عنه بحسب مقصد المرسل، وعلى أقل تقدير، فإن الخطاب الحجاجي ينجح في إثارة الرغبة عند المتلقي وتأهيله للقيام بالعمل في الطرف المناسب، فيجمع بذلك بين التأثير العقلي والفاعلية العملية¹¹، يشير طه عبد الرحمن إلى أن الحجاج يمتلك سمتين أساسيتين تعكسان طبيعته ووظيفته في الخطاب، الصفة الأولى تتعلق بالطابع التفاعلي والاجتماعي للحجاج، فهو خطاب لا يفهم بمعزل عن سياقه، بل يرتبط ارتباطاً وثيقاً بما يعرفه الناس من معلومات مشتركة وما يفرضه الموقف من متطلبات وظرفية¹². وبفضل هذا الطابع، يصبح الحجاج أداة مفتوحة لجميع المشاركين؛ فكل متلقي، بغض النظر عن مستواه أو خبرته، يمكنه فهمه والمساهمة فيه والمشاركة في صياغة معانيه. بهذا الشكل، يتحول الحجاج إلى مساحة حيوية للتبادل الفكري والتواصل الجماعي، بعكس البرهان الصوري الذي يلتزم بقواعد محددة ومراحل صارمة تفرض تدرجاً ثابتاً في مستويات الاستيعاب. أما الصفة الثانية فهي الطابع الجدلي للحجاج، فهو يقوم على أساس الإقناع والتأثير في عقل المتلقي، ويهدف إلى دفعه لاعتماد الفكرة أو الموقف المطروح. ويتميز هذا النوع من الخطاب بالمرونة في بناء الاستدلالات، فهو لا يكتفي بسرد حقائق أو قضايا مفردة، بل يجمع هذه العناصر ضمن شبكة متكاملة من الأفكار والمضامين المرتبطة ببعضها¹³. من خلال هذه البنية، يمكن الانتقال بسلاسة بين المقدمات والنتائج، مما يتيح للحجاج القدرة على التأثير العميق في عقل المتلقي وإقناعه بطريقة شاملة، تصل إلى قلب الفكرة قبل العقل.

تكن علاقة الحجاج بالأمثال بأنهما يشتركان في هدف أساسي واحد، وهو التأثير في العقل والسلوك البشري من خلال وسيلة موجزة وفعالة. فكما أن الأمثال لا تكتفي بسرد الوقائع مباشرة، بل تستخدم الصور والحكايات والرموز لتوصيل معنى أعمق، فإن الحجاج أيضاً يسعى إلى إقناع المتلقي، سواء لإثبات موقف معين أو لدفعه لتغيير رأيه أو القيام بسلوك محدد، يمكن اعتبار المثل بمثابة أداة حجاجية قديمة، حيث كانت العرب تستخدمها لنقل الحكمة وتجربة المجتمع بأسلوب يتيح للسامع فهم الموقف والتفاعل معه بسرعة، وهو ما يعكس الطابع التداولي للحجاج، إذ يعتمد على معرفة مشتركة وسياق اجتماعي يسمح للجميع بالمشاركة والاستيعاب¹⁴، وعلى الصعيد الجدلي الأمثال لا تكتفي بتقديم

الفكرة بصيغة مباشرة، بل تجمع بين الإيجاز والرمزية والتكرار الضمني للمبادئ، ما يجعلها أشبه بسلسلة من الانتقالات الفكرية التي تربط الموقف المعرفي بالنتيجة العملية.

2. حاجية المثل عند الضبي

إن دراسة الأمثال عند الضبي تكشف عن بنية حاجية تتجلى في أساليب متنوعة، كالتوكيد، والمقابلة، والتضمين، والإيجاز، مما يجعلها أداة فعالة في تثبيت المعنى وإقناع المخاطب، وسيتم في هذا المبحث الوقوف عند عدد من الأمثال التي أوردها الضبي، وقراءة أبعادها الحاجية في ضوء سياقها وقصصها المروية. ومن نماذج الأمثال وجابيتها عند الضبي قولهم:

• "أسعد أم سعيد؟"¹⁵

"ويضرب في العناية بذى الرحم، وفي الاستخبار أيضاً عن الأمرين الخير والشر، أيهما وقع. ومنه قول الحجاج لقتيبة بن مسلم وقد تزوج، فقال: أسعد أم سعيد؟ أراد أحسناء أم شَوْهَاء، جعل التصغير مثلاً للقبح، والتكبير مثلاً للحسن، وكما قال أبو تمام:

غَنِيْتُ بِهِ عَمَّنْ سِوَاهُ، وَخَوَّلْتُ ... عِجَافُ رِكَابِي عَنْ سَعِيدٍ إِلَى سَعْدٍ

يَعْنِي عَنْ الْجَدْبِ إِلَى الْخَصْبِ"¹⁶. المثل "أسعد أم سعيد" يقوم على الحجاج الاستقرائي المبني على حادثة واقعية، حيث خرج الابنان سعد وسعيد لطلب ناقة نفرت تحت الليل، فنجح سعد في إيجادها وأعادها، بينما فشل سعيد وذهب دون أن يرجع. من خلال هذا الموقف، أصبح السؤال "أسعد أم سعيد؟" وسيلة لإظهار الفرق بين من ينجز المهمة بنجاح ومن يفشل فيها. وهكذا، يعتمد الحجاج في المثل على المقارنة الواقعية للأفعال ونتائجها لإقناع المستمع بأن التفوق والنجاح لا يكونان إلا بالجد والاجتهاد، وليس بالاسم أو الظاهر فقط، يعتمد على حجاج استقرائي واستقهامي-اختياري، حيث يبرز الفرق بين النجاح والفشل من خلال المقارنة بين الخيارين. السؤال مع أداة التخيير «أم» يوجه المتلقي نحو الاستنتاج الصحيح، ويحفزه على التفكير في نتائج الأفعال، ما يجعل الحجاج تفاعلياً وفعالاً. كما يستفيد المثل من البلاغة اللغوية والاستعارات النحوية، إذ يرمز التصغير والتكبير إلى القبح والجمال أو الفشل والنجاح، مما يعزز القوة الإقناعية للمثل. بالإضافة إلى ذلك، يحمل بعداً نفسياً وأخلاقياً بتأكيد قيمة الاجتهاد والسعي للإنجاز، ويحث المتلقي على إدراك أهمية العمل الجاد لتحقيق النتائج المرجوة.

• "إن المعافى غير مخدوع"¹⁷

هذا المثل ينبع من قصة المستوغر بن ربيعة بن كعب، أحد فرسان العرب في الجاهلية، الذي كان يعيش حياة مليئة بالخبرة والحذر، زعموا أن شاباً من قومه كان له صديق يُدعى عامر، وقد خطط هذا الشاب لزيارة امرأة المستوغر خلسة. ولكن المستوغر فطن لمكر الشاب، إذ لاحظ تصرفاته وحركاته، ما دفعه إلى مواجهته بطريقة حكيمة ومنضبطة، حتى أظهر له أن الشخص المتيقظ والمعافى من الخطر لا يقع ضحية للخداع بسهولة¹⁸ ويضرب مثل لكل من يتعرض لأي نوع من أنواع الغش والخداع من قبل الأشخاص الذين يمنحهم المرء ثقته ومحبته. ومن هذا الموقف، أصبح المثل يُستخدم لتعليم الناس أن اليقظة والحصانة من الأذى تحفظ الشخص من الوقوع في الفخاخ والمكر. الحجاج في المثل هنا استقرائي وتجريبي، فهو يعتمد على حادثة واقعية لتأكيد صحة القول، ويُظهر أن المعافى - أي الذي يعيش في أمان ويعي ما حوله - لا يُخدع، كما أن المثل يحمل بعداً أخلاقياً واجتماعياً يبرز قيمة الحذر والوعي في التعامل مع الآخرين، والمثل يستخدم الحجاج الاستقرائي، والمقارنة، والاستفهام البلاغي، والحجاج الأخلاقي في آن واحد لإقناع المستمع بفكرة أن الحذر والمعاواة يحميان من الخداع. ويستفيد من أداة «إن» لتقوية الخبر وتحويله من مجرد وصف إلى تقرير حاسم، يحظى بالفاعلية الحجاجية، فهو يوجّه المتلقي إلى إدراك أن الشخص المعافى - سواء بعقله أو صحته - قادر على تمييز الحق من الباطل، وبالتالي لا يقع فريسة للخداع. وتكتسب الجملة بهذه الطريقة قوة إنجازية تجعل من المثل أداة تعليمية وأخلاقية، إذ تربط بين إدراك الحقيقة والنتيجة الواقعية المترتبة عليها. كما يعكس البعد النفسي أهمية الاستفادة من العافية أو العقل في حماية الفرد من الخطأ، ويعزز وعيه بالقدرة على الحكم الصحيح في الحياة. إن الجمع بين التأكيد الحجاجي، التقييد بالمسند إليه، والبعد النفسي يجعل من هذا المثل مثلاً حياً على الفاعلية الحجاجية للأمثال العربية في التوجيه الاجتماعي والأخلاقي

• "إنما يعيش المرء بأصغريه"¹⁹

يرتبط المثل «إنما يعيش المرء بأصغريه» بقصة شقة بن ضمرة حين دخل على المنذر بن ماء السماء، وقد أعجب الملك بذكائه وحكمته. فحينما قال شقة: «إنما يعيش المرء بأصغريه، بقلبه ولسانه»، قصد أن حقيقة الحياة الإنسانية وقيمتها لا تُقاس بما يملك الإنسان من متاع دنيوي أو بما يتمتع به من قوة جسدية، وإنما بما يحمله من عقل وفكر في قلبه، وما يُفصح عنه ببيانه ولسانه. وقد سرّ المنذر بهذا

القول وعدّه دليلاً على راحة عقل صاحبه، حتى صار المثل سائراً يُستشهد به في مواضع الحكمة²⁰. تتضح في هذا المثل البنية الحجاجية بجلاء، إذ تقوم على أداة الحصر (إنما) التي تفيد قصر الحياة الحقيقية على «الأصغر» ونفيها عما سواهما، الأمر الذي يوجّه المتلقي إلى نتيجة محددة لا تحتمل التعدد. كما أن المثل يعتمد على المقابلة الدلالية بين المظاهر المادية (المُتمثلة في الجُرر - أي الغنم - رمز المتاع والعيش الغريزي) وبين القيم الإنسانية (العقل والكلام)، وهو تقابل يقوّي الوظيفة الإقناعية للملفوظ. ولأن القول لم يكن وصفيّاً خالصاً، بل توجّه بخطابه إلى السامع بغرض التأثير، فقد اكتسب قوة إنجازية حجاجية جعلت المتلقي (المنذر) يتبنى النتيجة المرجوة، وهي أن الكرامة والاعتبار إنما تُبنى على الفكر واللسان لا على المال والقوة. ومن هنا يمكن القول إن هذا المثل يُجسد بوضوح توظيف تقنية الحصر باعتبارها من أهم تقنيات الحجاج التي تتيح توجيه ذهن المتلقي نحو النتيجة المنطقية المتوقعة، ومن ثم فهو شاهد على قدرة الأمثال العربية على الجمع بين الإيجاز البلاغي والفاعلية الحجاجية في آن واحد.

• "أينما أوجّه ألقى سعداً"²¹

هذا المثل ينبع من تجربة الأضبط بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد، الذي لاحظ أن قومه يسيئون إليه وينقصون من قدره، فبحث عن معاملة أفضل، رحل الأضبط مع أهله إلى جماعات أخرى، لكنه فوجئ أن نفس السلوك والتقليل منه يتكرر في كل مكان. من هذا الموقف، استنتج أن طبائع البشر متشابهة في كثير من الأحيان، وأن تصرفات الناس القريبة من التقص والبغي ليست حكراً على قومه وحدهم، وبذلك أصبح المثل وسيلة للتعبير عن هذا الاستنتاج، حيث يقول: "أينما أوجه ألقى سعداً"، أي يرى نفس طباع قومه في كل مكان²². والحجاج في هذا المثل يعتمد أساساً على الحجاج الاستقرائي الواقعي، إذ استنتج الأضبط نتيجة عامة من عدة تجارب فعلية، كما يستخدم الحجاج بالمقارنة والتكرار لتقوية الفكرة وإظهار أن السلوك متشابه في الجماعات المختلفة، بالإضافة إلى ذلك، يحمل المثل بعداً فلسفياً وتوجيهياً، إذ يعلم الناس درساً مهماً في فهم الطبيعة البشرية والتعامل مع الآخرين، مؤكداً أن الحكم على السلوك البشري يكون أفضل عبر الملاحظة والتجربة الواقعية وليس بالافتراض أو التوقع.

• "أسرع من نكاح أم خارجة" ²³

يقال المثل أسرع من نكاح أم خارجة يعود إلى أم خارجة بنت سحمة، وهي أم عدس، التي كانت من أجمل نساء عصرها وتزوجت عدة رجال متعاقبين، وأنجبت منهم أبناء، زُعم أن الخاطب عندما يأتيها ويسألها عن الزواج تقول له نكح، فكان يسبقها إلى إتمام الزواج بسرعة كبيرة، ومن هنا أصبح المثل يُستخدم للدلالة على السرعة الفائقة في إتمام أي أمر ²⁴. الحجاج في هذا المثل يقوم على الحجاج الواقعي المبني على حادثة فعلية، إذ يجعل القصة التاريخية أساساً لإقناع المستمع بفكرة السرعة المطلقة، كما يستخدم الحجاج بالمقارنة، حيث يقارن أي حدث سريع بسرعة زواج أم خارجة ليعطي تصوراً واضحاً ومؤثراً للسرعة، بالإضافة إلى ذلك، هناك الحجاج البلاغي والاستعاري، إذ يحول القصة الواقعية إلى مثال يُستخدم لتقريب المعنى وفهمه بسهولة، مما يجعل المثل أداة قوية في الإقناع والتأثير على المستمع.

• " لا يطاع لقصير رأي" ²⁵

يرتبط هذا المثل بقصة جديم الأبرش ملك الحيرة، الذي مال إلى شهوته وأصغى لرأي جلسائه، معرضاً عن نصيح قصير، وليده العاقل اللبيب. ولما رأى قصير أن صوته لا يُسمع ولا يُلتفت إلى مشورته، عبّر عن خيبة أمله وأسأه بقوله: لا يُطاع لقصير رأي. فغدا هذا القول مثلاً يُضرب عند تهميش الرأي السديد وإيثار الأهواء على العقل ²⁶، تأتي أداة النفي في هذا المثل لتؤسس لبنية حجاجية قوية ضمن التصوير البياني الذي يقدم الرأي السديد كشخصية أو كيان يُهمل. فالنفي هنا لم يأت مجرد إنكار، بل اكتسب قوة إنجازية عبر إبراز الفعل المستحيل أو المرفوض: أي أنه لا يُطاع من قصير الرأي، وهو تصوير يبرز عجز المخاطب أو الواقع عن الاستجابة للحكمة. وبإدراج النفي بهذه الصورة، يتحول المثل إلى أداة حجاجية متينة، إذ يقترن بالنفي مع التأكيد على المبدأ الأخلاقي، فيصبح الخطاب قادراً على توجيه المتلقي نحو النتيجة المرجوة، وهي إدراك قيمة العقل والنصيحة وضرورة الانصياع للرأي الرشيد. بهذا، يكتسب المثل الفاعلية الحجاجية من خلال الجمع بين النفي التصويري والقوة النفسية المضمرة في الخطاب، مما يحول المبدأ المجرد إلى تجربة محسوسة يعيها المتلقي، ويشعر بمدى أهميته في ضبط السلوك والاعتداد بالحكمة.

• "تلك بتلك فهل جزيتك؟"²⁷

هذا المثل يعود إلى قصة عمرو بن جدير بن سلمى، الذي كانت لديه امرأة معجبة به وجميلة، وكان ابن عمه يزيد بن المنذر معجباً بها أيضاً. نشأت خلافات بين عمرو ويزيد بسبب الحياء والغيرة، وتصادعت الأمور إلى اشتباك وخصام على الخيل، حيث وقع القتال وصراعات بين الطرفين. في نهاية الموقف، وبعد أن تمكن يزيد من بعض الأمور وأخذ فرسه، قال لعمرو: تلك بتلك فهل جزيتك؟، أي أنه رد بالمثل على ما حدث²⁸، مؤكداً فكرة المعاملة بالمثل والرد على الأفعال بمثلها. الحجاج في هذا المثل متنوع: أولاً، هناك الحجاج الواقعي أو الاستقرائي، لأنه يستند إلى حادثة فعلية حقيقية، مما يعزز قوة الإقناع ويجعل الفكرة ملموسة، ثانياً، الحجاج بالمقابلة أو العدالة، إذ يوضح أن كل فعل يُجازى بمثله، سواء كان خيراً أو شراً. ثالثاً، الحجاج البلاغي والاستعاري، إذ يستخدم التعبير "تلك بتلك" لتقديم الفكرة بشكل موجز وسريع. وأخيراً، هناك حجاج القافية أو الحجاج الصوتي، حيث يكرر المثل الصوت النهائي (تلك في تلك وجزيتك)، مما يخلق إيقاعاً لفظياً جذاباً، يسهل التذكر ويزيد من تأثير المعنى في ذهن المستمع. بهذا، يصبح المثل أداة قوية للإقناع تجمع بين الحجاج الواقعي، البلاغي، العدلي، والصوتي في آن واحد.

• "عش رجلاً ترى عجباً"²⁹

في زمنٍ قديم كان الحارث بن عباد شيخاً طاعناً في السن أصابه الخرف والهرم، فاضطر إلى طلاق بعض نسائه، وبعد مرور الزمن تزوجت إحداهن من رجل آخر، وأظهرت له من الوجد والحب ما لم تظهره للحارث قط، وعندما التقى الحارث بالزوج الجديد، وأبلغه بمكانتها ومودتها له، ابتسم الحارث وقال له: عش رجلاً ترعجباً، فصارت هذه العبارة مثلاً يُضرب للدهشة من الأمور غير المتوقعة بعد طول انتظار³⁰. في هذا المثل، يقوم الحجاج على الخبرة الشخصية والتجربة الواقعية؛ فالحارث نفسه عاش الموقف من فقدان المرأة إلى رؤيتها تعطي مشاعرها لغيره، مما يجعل حكمه حقيقياً وموثوقاً. أما القافية في قوله عش رجلاً ترعجباً، فهي قافية تكرارية صوتية (تتطابق في آخر الكلمة: رجلاً / ترعجباً)، وهو أسلوب شعري يستخدم الإيقاع اللغوي لتعزيز وقع الكلام وسهولة تذكره، ما يجعل المثل جذاباً وسهل التداول.

خلصت الدراسة إلى أن الأمثال في مدونة المفضل الضبي ليست مجرد شواهد لغوية أو حكايات تاريخية بل هي أدوات حاجية شديدة الفاعلية تمارس سلطتها من خلال التلاحم الفريد بين الإيجاز البلاغي والقوة الإنجازية، وقد كشف التحليل التطبيقي للأمثال المختارة عن تنوع الاستراتيجيات الإقناعية التي تراوحت بين الحجاج الاستقرائي القائم على التجربة الواقعية وبين الحجاج اللساني المعتمد على تقنيات النفي والحصص والاستفهام لتوجيه ذهن المتلقي نحو نتائج معرفية وسلوكية محددة. وتؤكد النتائج أن سر بقاء هذه الأمثال وسلطتها المستمرة يكمن في قدرتها على تحويل الموقف الجزئي إلى حكمة كلية تتجاوز حدود الزمان والمكان مما يجعل منها نظاماً تداولياً متكاملًا يجمع بين سلطة العقل الجمعي وجماليات البيان العربي في سبيل إرساء القيم وتوجيه الفكر الإنساني.

- ١- ينظر محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط١، بيروت، (١٤١٤هـ)، ص ٦١٠.
- ٢- ينظر جلال الدين السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، (١٩٩٨)، ص ٣٧٥.
- ٣- أبو قاسم جار الله محمد الزمخشري، المستقصى من أمثال العرب، دائرة المعارف العثمانية للنشر، ط١، حيدر آباد، (١٩٦٢)، ص ٤٦٥.
- ٤- ينظر أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، دار الأصاله للنشر، ط١، بيروت، (١٩٨١)، ص ٥١.
- ٥- ينظر ضياء الدين ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، دار النهضة، ط٢، القاهرة، (١٩٧٣)، ص ٥٥.
- ٦- ينظر كورنيليا صكوحى، الحجاج في المقام المدرسي ملاحظات حول تعليم الحجاج في المرحلة الثانية من التعليم الأساسي، مجلة كلية الآداب منوبة، تونس، مجلد ١، العدد ٢، (٢٠٠٣)، ص ٢٦.
- ٧- ينظر ليلي جغام، حجاجية المثل في نصوص كلية ودمنة لابن المقفع، مجلة كلية الآداب واللغات في جامعة محمد خضير، الجزائر، المجلد ١، (٢٠١٣)، ص ٩٠.
- ٨- محمد بن مكرم ابن منظور، المرجع السابق، ص ٢٢٨.
- ٩- أبو الحسين أحمد بن زكريا بن فارس، مقاييس اللغة، دار جيل للنشر، ط١، بيروت، (١٩٩١)، ص ٣٠.
- ١٠- ينظر كورنيليا صكوحى، المرجع السابق، ص ١٣.
- ١١- ينظر عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط١، بيروت، (٢٠٠٤)، ص ٤٥٦.
- ١٢- ينظر طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي للنشر، ط١، الدار البيضاء، (١٩٩٧)، ص ٢٢٦.
- ١٣- ينظر المصدر نفسه، ص ٦٥.
- ١٤- ينظر ليلي جغام، المرجع السابق، ص ٢٤.
- ١٥- المفضل بن محمد الضبي، أمثال العرب، دار الرائد العربي، ط١، بيروت، (١٩٨١)، ص ٤٧.
- ١٦- أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني، مجمع الأمثال، دار المعرفة، ط١، بيروت، (١٣٩٢هـ)، ص ٣٢٩.
- ١٧- المفضل بن محمد الضبي مرجع سابق، ص ٤٩.
- ١٨- ينظر المصدر نفسه، ص ٤٩.
- ١٩- المفضل بن محمد الضبي، المرجع السابق، ص ٥٢.

- 117 -